ملك ولا وزير ولا رئيس، مهما كانت عظمة ملكيتهم ورئاستهم ووزارتهم؛ لأن الله سبحانه ليس له مثل.

الآية الثانية عشرة: قوله: ﴿قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّيَ الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَالْإِثْمَ وَالْبَغْيَ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَأَنْ تُشْرِكُوا بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ سُلْطَانًا وَأَنْ تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ [الأعراف: ٣٣].

* ﴿قُلْ﴾: الخطاب للنبي ﷺ؛ أي: قل معلناً للناس.

* ﴿إِنَّمَا﴾: أداة حصر، وذلك لمقابلة تحريم من حرم ما أحل الله.

* ﴿حَرَّمَ﴾؛ بمعنى: منع، وأصل هذه المادة (ح ر م) تدل على المنع، ومنه: حريم البئر: للأرض التي تحميه حوله؛ لأنه يمنع من التعدي عليه.

* ﴿الْفَوَاحِشَ﴾: جمع فاحشة، وهي الذنب الذي يستفحش؛ مثل: الزنى واللواط.

الزنى؛ قال الله فيه: ﴿وَلَا تَقْرَبُوا الزِّنَا إِنَّهُ كَانَ فَاحِشَةً﴾ [الإسراء: ٣٢].

وفي اللواط؛ قال لوط لقومه: ﴿أَتَأْتُونَ الْفَاحِشَةَ﴾ [الأعراف: ٨٠].

ومن الزنى أن يتزوج الإنسان امرأة لا تحل له لقرابة أو رضاع أو مصاهرة؛ قال الله تعالى: ﴿وَلَا تَنْكِحُوا مَا نَكَحَ آبَاؤُكُمْ مِنَ النِّسَاءِ إِلَّا مَا قَدْ سَلَفَ إِنَّهُ كَانَ فَاحِشَةً وَمَقْتًا وَسَاءَ سَبِيلًا﴾

[النساء: ٢٢]، بل إن هذا أشد من الزنى؛ لأنه وصفه بثلاثة أوصاف: فاحشة، ومقت، وساء سبيلا، وفي الزنى وصفه الله بوصفين: ﴿إِنَّهُۥ كَانَ فَٰحِشَةً وَسَآءَ سَبِيلًا﴾ [الإسراء: ٣٢].

* وقوله: ﴿مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ﴾: قيل: إن المعنى ما ظهر فحشه وما خفي، وقيل: المعنى ما ظهر للناس وما بطن عنهم؛ باعتبار فعل الفاعل، لا باعتبار العمل؛ أي: ما أظهره الإنسان للناس وما أبطنه.

* قوله: ﴿وَٱلْإِثْمَ وَٱلْبَغْىَ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ﴾؛ يعني: حرم الإثم والبغي بغير الحق.

والإثم: المراد به ما يكون سبباً له من المعاصي.

والبغي: العدوان على الناس؛ قال الله تعالى: ﴿إِنَّمَا ٱلسَّبِيلُ عَلَى ٱلَّذِينَ يَظْلِمُونَ ٱلنَّاسَ وَيَبْغُونَ فِى ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ﴾ [الشورى: ٤٢].

* وفي قوله: ﴿وَٱلْبَغْىَ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ﴾: إشارة إلى أن كل بغي فهو بغير حق، وليس المراد أن البغي ينقسم إلى قسمين: بغي بحق، وبغي بغير حق؛ لأن البغي كله بغير حق.

وعلى هذا؛ فيكون الوصف هنا من باب الوصف الكاشف، ويسميها العلماء صفة كاشفة؛ أي: مبينة، وهي التي تكون كالتعليل لموصوفها.

* قوله: ﴿وَأَن تُشْرِكُوا۟ بِٱللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِۦ سُلْطَٰنًا﴾: هذه معطوفة على ما سبق؛ يعني: وحرم ربي أن تشركوا بالله ما لم ينزل به

سلطاناً؛ يعني: أن تجعلوا له شريكاً لم ينزل به سلطاناً؛ أي: حجة، وسميت الحجة سلطاناً؛ لأنها سلطة للمحتج بها.

وهذا القيد: ﴿مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِۦ سُلْطَٰنًا﴾: نقول فيه كما قلنا في ﴿وَٱلْبَغْىَ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ﴾؛ أي: أنه قيد كاشف؛ لأن كل من أشرك بالله؛ فليس له سلطان بشركه.

* قوله: ﴿وَأَن تَقُولُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾؛ يعني: وحرم أن تقولوا على الله ما لا تعلمون؛ فحرام علينا أن نقول على الله ما لا نعلم، سواء كان في ذاته أو أسمائه أو صفاته أو أفعاله أو أحكامه.

فهذه خمسة أشياء حرمها الله علينا.

وفيها رد على المشركين الذين حرموا ما لم يحرمه الله.

إذا قال قائل: أين الصفة السلبية في هذه الآية؟

قلنا: هي: ﴿وَأَن تُشْرِكُوا۟ بِٱللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِۦ سُلْطَٰنًا وَأَن تَقُولُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾؛ فالثنتان جميعاً من باب الصفات السلبية: ﴿وَأَن تُشْرِكُوا۟﴾؛ يعني: لا تجعلوا لله شريكاً لكماله. ﴿وَأَن تَقُولُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ كذلك؛ لكماله؛ فإنه من تمام سلطانه أن لا يقول عليه أحد ما لا يعلم.

الفائدة المسلكية من هذه الآية هي أن نتجنب هذه الأشياء الخمسة التي صرح الله تعالى بتحريمها.

وقد قال أهل العلم: إن هذه المحرمات الخمسة مما أجمعت الشرائع على تحريمها.

ويدخل في القول على الله بغير علم تحريف نصوص الكتاب والسنة في الصفات وغيرها، فإن الإنسان إذا حرف نصوص الصفات؛ مثل أن يقول: المراد باليدين النعمة فقد قال على الله ما لا يعلم من وجهين:

الوجه الأول: أنه نفى الظاهر بلا علم.

والثاني: أثبت لله خلافه بغير دليل.

فهو يقول: لم يرد الله كذا، وأراد كذا، فنقول: هات الدليل على أنه لم يرد كذا، وعلى أنه أراد كذا! فإن لم تأت بالدليل؛ فإنك قد قلت على الله ما لا تعلم.

* * *

● **استواء الله على عرشه:**

الشرح:

ذكر المؤلف رحمه الله ثبوت استواء الله على عرشه وأنه في سبعة مواضع من القرآن:

الموضع الأول: قوله في سورة الأعراف: ﴿إِنَّ رَبَّكُمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ﴾ [الأعراف: ٥٤].

﴿ٱللَّهُ﴾ خبر ﴿إِنَّ﴾.

﴿خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ﴾: أوجدهما من العدم على وجه

الإحكام والإتقان.

* ﴿فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ﴾: ومدة هذه الأيام كأيامنا التي نعرف؛ لأن الله سبحانه وتعالى ذكرها منكَّرة، فتحمل على ما كان معروفاً.

وأول هذه الأيام يوم الأحد، وآخرها يوم الجمعة.

منها أربعة أيام للأرض، ويومان للسماء؛ كما فصل الله ذلك في سورة فصلت:

﴿۞ قُلْ أَئِنَّكُمْ لَتَكْفُرُونَ بِالَّذِي خَلَقَ الْأَرْضَ فِي يَوْمَيْنِ وَتَجْعَلُونَ لَهُ أَندَادًا ذَٰلِكَ رَبُّ الْعَالَمِينَ * وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِيَ مِن فَوْقِهَا وَبَارَكَ فِيهَا وَقَدَّرَ فِيهَا أَقْوَاتَهَا فِي أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ سَوَاءً لِّلسَّائِلِينَ﴾ [فصلت: ٩ ـ ١٠]؛ فصارت أربعة. ﴿ثُمَّ اسْتَوَىٰ إِلَى السَّمَاءِ وَهِيَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ائْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ * فَقَضَاهُنَّ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ فِي يَوْمَيْنِ﴾ [فصلت: ١١ ـ ١٢].

* وقوله: ﴿ثُمَّ اسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ﴾: ﴿ثُمَّ﴾: للترتيب.

* ﴿اسْتَوَىٰ﴾؛ بمعنى: علا.

* و﴿الْعَرْشِ﴾: هو ذلك السقف المحيط بالمخلوقات، ولا نعلم مادة هذا العرش؛ لأنه لم يرد عن النبي ﷺ حديث صحيح يبين من أين خُلِقَ هذا العرش، لكننا نعلم أنه أكبر المخلوقات التي نعرفها.

وأصل العرش في اللغة: السرير الذي يختص به الملك، ومعلوم أن السرير الذي يختص به الملك سيكون سريراً عظيماً فخماً لا نظير له.

وفي هذه الآية من صفات الله تعالى عدة صفات، لكن المؤلف ساقها لإثبات صفة واحدة، وهي الاستواء على العرش.

* وأهل السنة والجماعة يؤمنون بأن الله تعالى مستوٍ على عرشه استواءً يليق بجلاله ولا يماثل استواء المخلوقين.

فإن سألت: ما معنى الاستواء عندهم؟ فمعناه العلو والاستقرار.

وقد ورد عن السلف في تفسيره أربعة معاني: الأول: علا. والثاني: ارتفع. والثالث: صعد. والرابع: استقر.

لكن (علا) و(ارتفع) و(صعد) معناها واحد، وأما (استقر)؛ فهو يختلف عنها.

ودليلهم في ذلك: أنها في جميع مواردها في اللغة العربية لم تأت إلا لهذا المعنى إذا كانت متعدية بـ (على):

قال الله تعالى: ﴿فَإِذَا ٱسْتَوَيْتَ أَنتَ وَمَن مَّعَكَ عَلَى ٱلْفُلْكِ﴾ [المؤمنون: ٢٨].

وقال تعالى: ﴿وَجَعَلَ لَكُم مِّنَ ٱلْفُلْكِ وَٱلْأَنْعَٰمِ مَا تَرْكَبُونَ * لِتَسْتَوُۥا۟ عَلَىٰ ظُهُورِهِۦ ثُمَّ تَذْكُرُوا۟ نِعْمَةَ رَبِّكُمْ إِذَا ٱسْتَوَيْتُمْ عَلَيْهِ﴾ [الزخرف: ١٢].

* وفسره أهل التعطيل بأن المراد به الاستيلاء، وقالوا: معنى: ﴿ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ﴾ [الأعراف: ٥٤]؛ يعني: ثم استولى عليه.

واستدلوا لتحريفهم هذا بدليلٍ موجب وبدليل سالب:

ـ أما الدليل الموجب؛ فقالوا: إننا نستدل بقول الشاعر:

قَدِ اسْتَوَى بِشْرٌ عَلى العِراقِ مِنْ غَيْرِ سَيْفٍ أوْ دَمٍ مِهْراقِ

(بشر): ابن مروان، (استوى)؛ يعني: استولى على العراق.

قالوا: وهذا بيت من رجل عربي، ولا يمكن أن يكون المراد به استوى على العراق؛ يعني علا على العراق! لا سيما أنه في ذلك الوقت لا طائرات يمكن أن يعلو على العراق بها.

ـ أما الدليل السلبي؛ فقالوا: لو أثبتنا أن الله عز وجل مستو على عرشه بالمعنى الذي تقولون، وهو العلو والاستقرار؛ لزم من ذلك أن يكون محتاجاً إلى العرش، وهذا مستحيل، واستحالة اللازم تدل على استحالة الملزوم.

ولزم من ذلك أن يكون جسماً؛ لأن استواء شيء على شيء بمعنى علوه عليه يعني أنه جسم.

ولزم أن يكون محدوداً؛ لأن المستوي على الشيء يكون محدوداً، إذا استويت على البعير؛ فأنت محدود في منطقة معينة محصور بها وعلى محدود أيضاً.

هذه الأشياء الثلاثة التي زعموا أنها تلزم من إثبات أن الاستواء بمعنى العلو والارتفاع.

* والرد عليهم من وجوه:

أولاً: تفسيركم هذا مخالف لتفسير السلف الذي أجمعوا عليه، والدليل على إجماعهم أنه لم ينقل عنهم أنهم قالوا به

وخالفوا الظاهر، ولو كانوا يرون خلاف ظاهره؛ لنقل إلينا؛ فما منهم أحد قال: إن (استوى) بمعنى (استولى) أبداً.

ثانياً: أنه مخالف لظاهر اللفظ؛ لأن مادة الاستواء إذا تعدت بـ(على)؛ فهي بمعنى العلو والاستقرار، هذا ظاهر اللفظ، وهذه مواردها في القرآن وفي كلام العرب.

ثالثاً: أنه يلزم عليه لوازم باطلة:

١ ـ يلزم أن يكون الله عز وجل حين خلق السماوات والأرض ليس مستولياً على عرشه؛ لأن الله يقول: ﴿خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ﴾ [الأعراف: ٥٤]، و﴿ثُمَّ﴾ تفيد الترتيب، فيلزم أن يكون العرش قبل تمام خلق السماوات والأرض لغير الله.

٢ ـ أن الغالب من كلمة (استولى) أنها لا تكون إلا بعد مغالبة! ولا أحد يغالب الله.

أيْـنَ المَفَـرُّ والإلـهُ الطَّـالِـبُ والأشْرَمُ المَغْلوبُ لَيْسَ الغالِبُ[1]

٣ ـ من اللوازم الباطلة أنه يصح أن نقول: إن الله استوى على الأرض والشجر والجبال؛ لأنه مستولٍ عليها.

وهذه لوازم باطلة، وبطلان اللازم يدل على بطلان الملزوم.

---

(١) ينسب هذا البيت إلى نفيل بن حبيب، قاله عندما أنزل الله على أصحاب الفيل النقمة، «تفسير ابن كثير» (٤/ ٥٠٢).

وأما استدلالهم بالبيت؛ فنقول:

١ ـ أَثبِتوا لنا سند هذا البيت وثقة رجاله، ولن يجدوا إلى ذلك سبيلاً[1].

٢ ـ من هذا القائل؟ أفلا يمكن أن يكون قاله بعد تغير اللسان؟ لأن كل قول يستدل به على اللغة العربية بعد تغير اللغة العربية فإنه ليس بدليل؛ لأن العربية بدأت تتغير حين اتسعت الفتوح ودخل العجم مع العرب فاختلف اللسان، وهذا فيه احتمال أنه بعد تغير اللسان.

٣ ـ أن تفسيركم «استوى بشر على العراق» بـ(استولى) تفسير تعضده القرينة، لأنه من المتعذر أن بشراً يصعد فوق العراق فيستوى عليه كما يستوي على السرير أو على ظهر الدابة فلهذا نلجأ إلى تفسيره بـ(استولى).

هذا نقوله من باب التنزل، وإلا؛ فعندنا في هذا جواب آخر: أن نقول: الاستواء في البيت بمعنى العلو؛ لأن العلو نوعان:

١ ـ علو حسي؛ كاستوائنا على السرير.

٢ ـ وعلو معنوي؛ بمعنى السيطرة والغلبة.

---

(١) قال شيخ الإسلام ابن تيمية: «ولم يثبت نقل صحيح أنه شعر عربي، وكان غير واحد من أئمة اللغة أنكروه وقالوا: إنه بيت مصنوع لا يعرف في اللغة، وقد علم أنه لو احتج بحديث رسول الله ﷺ لاحتاج إلى صحته، فكيف ببيت من الشعر لا يعرف إسناده؟ وقد طعن فيه أئمة اللغة» «مجموع الفتاوى» (٥/ ١٤٦).

فيكون معنى «استوى بشر على العراق»؛ يعني: علا علوَّ غلبةٍ وقهر.

وأما قولكم: إنه يلزم من تفسير الاستواء بالعلو أن يكون الله جسماً.

فجوابه: كل شيء يلزم من كتاب الله وسنة رسوله ﷺ؛ فهو حق، ويجب علينا أن نلتزم به، ولكن الشأن كل الشأن أن يكون هذا من لازم كلام الله ورسوله؛ لأنه قد يمنع أن يكون لازماً؛ فإذا ثبت أنه لازم؛ فليكن، ولا حرج علينا إذا قلنا به.

ثم نقول: ماذا تعنون بالجسم الممتنع؟

إن أردتم به أنه ليس لله ذات تتصف بالصفات اللازمة لها اللائقة بها؛ فقولكم باطل؛ لأن لله ذاتاً حقيقية متصفة بالصفات، وأن له وجهاً ويداً وعيناً وقدماً، وقولوا ما شئتم من اللوازم التي هي لازم حق.

وإن أردتم بالجسم الذي قلتم يمتنع أن يكون الله جسماً: الجسم المركب من العظام واللحم والدم وما أشبه ذلك؛ فهذا ممتنع على الله، وليس بلازم من القول بأن استواء الله على العرش علوه عليه.

وأما قولهم: إنه يلزم أن يكون محدوداً.

فجوابه أن نقول بالتفصيل: ماذا تعنون بالحد؟

إن أردتم أن يكون محدوداً؛ أي: يكون مبايناً للخلق منفصلاً

عنهم؛ كما تكون أرض لزيد وأرض لعمر؛ فهذه محدودة منفصلة عن هذه، وهذه منفصلة عن هذه؛ فهذا حق ليس فيه شيء من النقص.

وإن أردتم بكونه محدوداً: أن العرش محيط به؛ فهذا باطل، وليس بلازم؛ فإن الله تعالى مستوٍ على العرش، وإن كان عز وجل أكبر من العرش ومن غير العرش، ولا يلزم أن يكون العرش محيطاً به، بل لا يمكن أن يكون محيطاً به؛ لأن الله سبحانه وتعالى أعظم من كل شيء وأكبر من كل شيء، والأرض جميعاً قبضته يوم القيامة، والسماوات مطويات بيمينه.

وأما قولهم: يلزم أن يكون محتاجاً إلى العرش.

فنقول: لا يلزم؛ لأن معنى كونه مستوياً على العرش: أنه فوق العرش، لكنه علو خاص، وليس معناه أن العرش يقله أبداً؛ فالعرش لا يقله، والسماء لا تقله، وهذا اللازم الذي ادعيتموه ممتنع؛ لأنه نقص بالنسبة إلى الله عز وجل، وليس بلازم من الاستواء الحقيقي؛ لأننا لسنا نقول: إن معنى ﴿ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ﴾؛ يعني: أن العرش يقله ويحمله؛ فالعرش محمول: ﴿وَيَحْمِلُ عَرْشَ رَبِّكَ فَوْقَهُمْ يَوْمَئِذٍ ثَمَٰنِيَةٌ﴾ [الحاقة: ١٧]، وتحمله الملائكة الآن، لكنه ليس حاملاً لله عز وجل؛ لأن الله سبحانه وتعالى ليس محتاجاً إليه، ولا مفتقراً إليه، وبهذا تبطل حججهم السلبية.

* وخلاصة ردنا لكلامهم من عدة أوجه:

الأول: أن قولهم هذا مخالف لظاهر النص.

ثانياً: مخالف لإجماع الصحابة وإجماع السلف قاطبة.

ثالثاً: أنه لم يرد في اللغة العربية أن (استوى) بمعنى (استولى)، والبيت الذي احتجوا به على ذلك لا يتم به الاستدلال.

رابعاً: أنه يلزم عليه لوازم باطلة:

ـ منها: أن يكون العرش قبل خلق السماوات والأرض ملكاً لغير الله.

ـ أن كلمة (استولى) تعطي في الغالب أن هناك مغالبة بين الله وبين غيره، فاستولى عليه وغلبه.

ـ أنه يصح أن نقول ـ على زعمكم ـ: أن الله استوى على الأرض والشجر والجبال والإنسان والبعير؛ لأنه (استولى) على هذه الأشياء؛ فإذا صح أن نطلق كلمة (استولى) على شيء؛ صح أن نطلق (استوى) على ذلك الشيء؛ لأنهما مترادفان على زعمكم.

فبهذه الأوجه يتبين أن تفسيرهم باطل.

* ولما كان أبو المعالي الجويني ـ عفا الله عنه ـ يقرر مذهب الأشاعرة، وينكر استواء الله على العرش، بل وينكر علو الله بذاته؛ قال: كان الله تعالى ولم يكن شيء غيره، وهو الآن على ما كان عليه. وهو يريد أن ينكر استواء الله على العرش؛ يعني: كان ولا عرش، وهو الآن على ما كان عليه؛ إذاً: لم يستو على العرش. فقال له أبو العلاء الهمذاني: يا أُستاذ! دعنا من ذكر العرش والاستواء على العرش ـ يعني: لأن دليله سمعي، ولولا أن

الله أخبرنا به ما علمناه ـ أخبرنا عن هذه الضرورة التي نجد في نفوسنا: ما قال عارف قط: يا ألله! إلا وجد من قلبه ضرورةً بطلب العلو. فبهت أبو المعالي، وجعل يضرب على رأسه: حيرني الهمذاني، حيرني الهمذاني! وذلك لأن هذا دليل فطري، ما أحد ينكره.

الموضع الثاني: في سورة يونس؛ قال الله تعالى: ﴿إِنَّ رَبَّكُمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ﴾ [يونس: ٣].

نقول فيها ما قلنا في الآية الأولى.

الموضع الثالث: في سورة الرعد قال الله تعالى: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى رَفَعَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ﴾ [الرعد: ٢].

* ﴿رَفَعَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ﴾: ﴿بِغَيْرِ عَمَدٍ﴾: هل يعني: ليس لها عمد مطلقاً؟ أو لها عمد لكنه غير مرئية لنا؟

فيه خلاف بين المفسرين؛ فمنهم من قال: إن جملة ﴿تَرَوْنَهَا﴾ صفة لـ﴿عَمَدٍ﴾؛ أي: بغير عمد مرئيةٍ لكم، ولها عمد غير مرئية. ومنهم من قال: إن جملة ﴿تَرَوْنَهَا﴾ جملة مستأنفة؛ معناها: ترونها كذلك بغير عمد. وهذا الأخير أقرب؛ فإن السماوات ليس لها عمد مرئية ولا غير مرئية، ولو كان لها عمد؛ لكانت مرئية في الغالب، وإن كان الله تعالى قد يحجب عنا بعض المخلوقات الجِسْمِيّة لحكمة يريدها.

* وقوله: ﴿ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ ﴾: هذا الشاهد، ويقال في معناها ما سبق.

الموضع الرابع: في سورة طه قال: ﴿ ٱلرَّحْمَٰنُ عَلَى ٱلْعَرْشِ ٱسْتَوَىٰ ﴾ [طه: ٥].

* قدم ﴿ عَلَى ٱلْعَرْشِ ﴾ وهو معمول لـ ﴿ ٱسْتَوَىٰ ﴾ لإفادة الحصر والتخصيص وبيان أنه سبحانه وتعالى لم يستو على شيء سوى العرش.

* وفي ذكر ﴿ ٱلرَّحْمَٰنُ ﴾ إشارة إلى أنه مع علوه وعظمته موصوف بالرحمة.

الموضع الخامس: في سورة الفرقان قوله: ﴿ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ ٱلرَّحْمَٰنُ ﴾ [الفرقان: ٥٩].

* ﴿ ٱلرَّحْمَٰنُ ﴾: فاعل ﴿ ٱسْتَوَىٰ ﴾.

الموضع السادس: في سورة الٓمٓ السجدة قال: ﴿ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ ﴾ [السجدة: ٤].

* نقول فيها مثل ما قلنا في آيتي الأعراف ويونس، لكن هنا فيه زيادة: ﴿ وَمَا بَيْنَهُمَا ﴾؛ يعني: بين السماء والأرض، والذي بينهما مخلوقات عظيمة استحقت أن تكون معادلةً للسماوات والأرض، وهذه المخلوقات العظيمة منها ما هو معلوم لنا كالشمس والقمر والنجوم والسحاب، ومنها ما هو مجهول إلى الآن.

الموضع السابع: في سورة الحديد قال: ﴿هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ﴾ [الحديد: ٤].

فهذه سبعة مواضع؛ كلها يذكر الله تعالى فيها الاستواء معدى بـ ﴿عَلَى﴾.

* وبعد؛ فقد قال العلماء: إن أصل هذه المادة (س و ى) تدل على الكمال ﴿ٱلَّذِى خَلَقَ فَسَوَّىٰ﴾ [الأعلى: ٢]؛ أي: أكمل ما خلقه؛ فأصل السين والواو والياء تدل على الكمال.

ثم هي على أربعة أوجه في اللغة العربية: معداة بـ(إلى)، ومعداة بـ(على)، ومقرونة بالواو، ومجردة:

- فالمعداة بـ(على) مثل: ﴿ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ﴾ [الحديد: ٤]، ومعناها: علا واستقر.

- والمعداة بـ(إلى): مثل قوله تعالى: ﴿ثُمَّ ٱسْتَوَىٰٓ إِلَى ٱلسَّمَآءِ فَسَوَّىٰهُنَّ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ﴾ [البقرة: ٢٩].

فهل معناها كالأُولى المُعدَّاة بـ(على)؟

فيها خلاف بين المفسرين:

منهم من قال: إن معناهما واحد، وهذا ظاهر تفسير ابن جرير رحمه الله؛ فمعنى ﴿ٱسْتَوَىٰٓ إِلَى ٱلسَّمَآءِ﴾؛ أي: ارتفع إليها.

ومنهم من قال: بل الاستواء هنا بمعنى القصد الكامل؛ فمعنى: استوى إليها؛ أي: قصد إليها قصداً كاملاً، وأيدوا تفسيرهم هذا بأنها عديت بما يدل على هذا المعنى، وهو (إلى)،

وإلى هذا ذهب ابن كثير رحمه الله؛ ففسر قوله: ﴿ثُمَّ ٱسْتَوَىٰٓ إِلَى ٱلسَّمَآءِ﴾؛ أي: قصد إلى السماء، والاستواء ها هنا مضمن معنى القصد والإقبال؛ لأنه عدي بـ(إلى). ا.هـ. كلامه.

- والمقرونة بالواو؛ كقولهم: استوى الماء والخشبة؛ بمعنى: تساوى الماء والخشبة.

- والمجردة؛ كقوله تعالى: ﴿وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُۥ وَٱسْتَوَىٰٓ﴾ [القصص: ١٤]، ومعناها: كمل.

تنبيه:

إذا قلنا: استوى على العرش؛ بمعنى: علا؛ فها هنا سؤال، وهو: إن الله خلق السماوات، ثم استوى على العرش؛ فهل يستلزم أنه قبل ذلك ليس عالياً؟

فالجواب: لا يستلزم ذلك؛ لأن الاستواء على العرش أخص من مطلق العلو؛ لأن الاستواء على العرش علو خاص به، والعلو شامل على جميع المخلوقات؛ فعلوه عز وجل ثابت له أزلاً وأبداً، لم يزل عالياً على كل شيء قبل أن يخلق العرش، ولا يلزم من عدم استوائه على العرش عدم علوه، بل هو عالٍ، ثم بعد خلق السماوات والأرض علا علوّاً خاصّاً على العرش.

فإن قلت: نفهم من الآية الكريمة أنه حين خلق السماوات والأرض ليس مستوياً على العرش، لكن قبل خلق السماوات والأرض؛ هل هو مستوٍ على العرش أو لا؟

فالجواب: الله أعلم بذلك.

فإن قلت: هل استواء الله تعالى على عرشه من الصفات الفعليه أو الذاتية؟

فالجواب: أنه من الصفات الفعلية؛ لأنه يتعلق بمشيئته، وكل صفة تتعلق بمشيئته؛ فهي من الصفات الفعلية.

● **إثبات علو الله على مخلوقاته:**

الشرح:

ذكر المؤلف رحمه الله في إثبات علو الله على خلقه ست آيات.

الآية الأولى: قوله: ﴿يَٰعِيسَىٰٓ إِنِّي مُتَوَفِّيكَ وَرَافِعُكَ إِلَيَّ﴾ [آل عمران: ٥٥].

* الخطاب لعيسى بن مريم الذي خلقه الله من أم بلا أب، ولهذا ينسب إلى أُمه، فيقال: عيسى بن مريم.

* يقول الله: ﴿إِنِّي مُتَوَفِّيكَ﴾: ذكر العلماء فيها ثلاثة أقوال:

القول الأول: ﴿مُتَوَفِّيكَ﴾؛ بمعنى: قابضك، ومنه قولهم: توفى حقه؛ أي: قبضه.

القول الثاني: ﴿مُتَوَفِّيكَ﴾: منيمك؛ لأن النوم وفاة؛ كما قال تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِي يَتَوَفَّىٰكُم بِٱلَّيْلِ وَيَعْلَمُ مَا جَرَحْتُم بِٱلنَّهَارِ ثُمَّ يَبْعَثُكُمْ فِيهِ لِيُقْضَىٰٓ أَجَلٌ مُّسَمًّى﴾ [الأنعام: ٦٠].

القول الثالث: أنه وفاة موت: ﴿مُتَوَفِّيكَ﴾: مميتك، ومنه قوله تعالى: ﴿ٱللَّهُ يَتَوَفَّى ٱلْأَنفُسَ حِينَ مَوْتِهَا﴾ [الزمر: ٤٢].

والقول بأن ﴿مُتَوَفِّيكَ﴾ متوفيك بمعنى مميتك بعيد؛ لأن عيسى عليه السلام لم يمت، وسينزل في آخر الزمان؛ قال الله تعالى: ﴿وَإِن مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ إِلَّا لَيُؤْمِنَنَّ بِهِۦ قَبْلَ مَوْتِهِۦ﴾ [النساء: ١٥٩]؛ أي: قبل موت عيسى على أحد القولين، وذلك إذا نزل في آخر الزمان. وقيل: قبل موت الواحد؛ يعني: ما من أحد من أهل الكتاب إلا إذا حضرته الوفاة؛ آمن بعيسى، حتى وإن كان يهوديّاً. وهذا القول ضعيف.

بقي النظر بين وفاة القبض ووفاة النوم، فنقول: إنه يمكن أن يجمع بينهما، فيكون قابضاً له حال نومه؛ أي أن الله تعالى ألقى عليه النوم، ثم رفعه، ولا منافاة بين الأمرين.

قوله: ﴿وَرَافِعُكَ إِلَيَّ﴾: الشاهد هنا؛ فإن ﴿إِلَيَّ﴾ تفيد الغاية، وقوله: ﴿وَرَافِعُكَ إِلَيَّ﴾: يدل على أن المرفوع إليه كان عالياً، وهذا يدل على علو الله عز وجل.

فلو قال قائل: المراد: رافعك منزلة؛ كما قال الله تعالى: ﴿وَجِيهًا فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ وَمِنَ ٱلْمُقَرَّبِينَ﴾ [آل عمران: ٤٥].

قلنا: هذا لا يستقيم؛ لأن الرفع هنا عُدِّيَ بحرف يختص بالرفع الذي هو الفوقية؛ رفع الجسد، وليس رفع المنزلة.

* واعلم أن علو الله عز وجل ينقسم إلى قسمين: علو

معنوي، وعلو ذاتي:

١ ـ أما العلو المعنوي؛ فهو ثابت لله بإجماع أهل القبلة؛ أي: بالإجماع من أهل البدع وأهل السنة؛ كلهم يؤمنون بأن الله تعالى عالٍ علوّاً معنويّاً.

٢ ـ وأما العلو الذاتي؛ فيثبته أهل السنة، ولا يثبته أهل البدعة؛ يقولون: إن الله تعالى ليس عالياً علوّاً ذاتيّاً.

* فنبدأ أولاً بأدلة أهل السنة على علو الله سبحانه وتعالى الذاتي، فنقول:

إن أهل السنة استدلوا على علو الله تعالى علوّاً ذاتيّاً بالكتاب والسنة والإجماع والعقل والفطرة:

أولاً: فالكتاب تنوعت دلالته على علو الله؛ فتارةً بذكر العلو، وتارةً بذكر الفوقية، وتارةً بذكر نزول الأشياء من عنده، وتارةً بذكر صعودها إليه، وتارةً بكونه في السماء...

١) فالعلو مثل قوله: ﴿وَهُوَ ٱلْعَلِيُّ ٱلْعَظِيمُ﴾ [البقرة: ٢٥٥]، ﴿سَبِّحِ ٱسْمَ رَبِّكَ ٱلْأَعْلَى﴾ [الأعلى: ١].

٢) والفوقية: ﴿وَهُوَ ٱلْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِۦ﴾ [الأنعام: ١٨]، ﴿يَخَافُونَ رَبَّهُم مِّن فَوْقِهِمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ ۩﴾ [النحل: ٥٠].

٣) ونزول الأشياء منه؛ مثل قوله: ﴿يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ إِلَى ٱلْأَرْضِ﴾ [السجدة: ٥]، ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ﴾ [الحجر: ٩]... وما أشبه ذلك.

٤) وصعود الأشياء إليه؛ مثل قوله: ﴿إِلَيْهِ يَصْعَدُ الْكَلِمُ الطَّيِّبُ وَالْعَمَلُ الصَّالِحُ يَرْفَعُهُ﴾ [فاطر: ١٠]، ومثل قوله: ﴿تَعْرُجُ الْمَلَائِكَةُ وَالرُّوحُ إِلَيْهِ﴾ [المعارج: ٤].

٥) كونه في السماء؛ مثل قوله: ﴿أَأَمِنتُم مَّن فِي السَّمَاءِ أَن يَخْسِفَ بِكُمُ الْأَرْضَ﴾ [الملك: ١٦].

ثانياً: وأما السنة فقد تواترت عن النبي ﷺ من قوله وفعله وإقراره:

١) فأما قول الرسول عليه الصلاة والسلام:

فجاء بذكر العلو والفوقية، ومنه قوله ﷺ: «سبحان ربي الأعلى»[(١)]، وقوله لما ذكر السماوات؛ قال: «والله فوق العرش»[(٢)].

وجاء بذكر أن الله في السماء؛ مثل قوله ﷺ: «ألا تأمنوني وأنا أمين مَن في السماء»[(٣)].

---

(١) رواه مسلم (٧٧٢) من حديث حذيفة رضي الله عنه.

(٢) رواه ابن خزيمة في كتاب «التوحيد» (١/ ٢٤٤)، واللالكائي في «شرح السنة» (٦٥٩)، والطبراني في «الكبير» (٩/ ٢٢٨)، وقال الهيثمي في «المجمع» (١/ ٨٦): رواه الطبراني ورجاله رجال الصحيح، ورواه البيهقي في «الأسماء والصفات» (٨٥١)، وأبو الشيخ في كتاب «العظمة» (٢٧٩)، والدارمي في «الرد على الجهمية» (٨١)، وقال الذهبي في «العلو»: إسناده صحيح. «مختصر العلو» (٤٨) من حديث ابن مسعود رضي الله عنه.

(٣) رواه البخاري (٤٣٥١)، ومسلم (١٠٦٤)؛ عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه.

٢) وأما الفعل؛ فمثل رفع أصبعه إلى السماء، وهو يخطب الناس في أكبر جمع، وذلك في يوم عرفة، عام حجة الوداع؛ فإن الصحابة لم يجتمعوا اجتماعاً أكبر من ذلك الجمع؛ إذ إن الذي حج معه بلغ نحو مئة ألف، والذين مات عنهم نحو مئة وأربعة وعشرين ألفاً. يعني: عامة المسلمين حضروا ذلك الجمع، فقال عليه الصلاة والسلام: «ألاَ هل بلّغت؟». قالوا: نعم. «ألاَ هل بلّغت؟». قالوا: نعم. «ألاَ هل بلّغت؟». قالوا: نعم. وكان يقول: «اللهم! اشهد»؛ يشير إلى السماء بأصبعه، وينكتها إلى الناس[١].

ومن ذلك رفع يديه إلى السماء في الدعاء.

وهذا إثبات للعلو بالفعل.

٣) وأما التقرير؛ فإنه في حديث معاوية بن الحكم رضي الله عنه؛ أنه أتى بجارية يريد أن يعتقها، فقال لها النبي ﷺ: «أين الله؟». قالت: في السماء. فقال: «من أنا؟». قالت: رسول الله. قال: «أعتقها؛ فإنها مؤمنة»[٢].

فهذه جارية لم تتعلم، والغالب على الجواري الجهل، لا سيما وهي أمة غير حرة، لا تملك نفسها، تعلم أن ربها في السماء، وضلال بني آدم ينكرون أن الله في السماء، ويقولون: إما

---

(١) رواه مسلم (١٢١٨)؛ من حديث جابر بن عبدالله رضي الله عنهما؛ الطويل في صفة حج النبي ﷺ.

(٢) تقدم تخريجه (ص٨٥)، وهو عند مسلم.

أنه لا فوق العالم ولا تحته ولا يمين ولا شمال! أو أنه في كل مكان!!

فهذه من أدلة الكتاب والسنة.

ثالثاً: وأما دلالة الإجماع؛ فقد أجمع السلف على أن الله تعالى بذاته في السماء، من عهد الرسول عليه الصلاة والسلام، إلى يومنا هذا.

إن قلت: كيف أجمعوا؟

نقول: إمرارهم هذه الآيات والأحاديث مع تكرار العلو فيها والفوقية ونزول الأشياء منه وصعودها إليه دون أن يأتوا بما يخالفها إجماع منهم على مدلولها.

ولهذا لما قال شيخ الإسلام: «إن السلف مجمعون على ذلك»؛ قال: «ولم يقل أحد منهم: إن الله ليس في السماء، أو: إن الله في الأرض، أو: إن الله لا داخل العالم ولا خارجه ولا متصل ولا منفصل، أو: إنه لا تجوز الإشارة الحسية إليه».

رابعاً: وأما دلالة العقل؛ فنقول: لا شك أن الله عز وجل إما أن يكون في العلو أو في السفل، وكونه في السفل مستحيل؛ لأنه نقص يستلزم أن يكون فوقه شيء من مخلوقاته فلا يكون له العلو التام والسيطرة التامة والسلطان التام؛ فإذا كان السفل مستحيلاً؛ كان العلو واجباً.